

التحرير والتنوير

ووصف الحمل ب (خفيفا) إدماج ثان وهو حكاية للواقع فان الحمل في مبدئه لا تجد منه الحامل ألما وليس المراد هنا حملا خاصا ولكنه الخبر عن كل حمل في أوله لأن المراد بالزوجين جنسهما فهذه حكاية حالة تحصل منها عبرة أخرى وهي عبرة تطور الحمل كيف يبتدئ خفيفا كالعدم ثم يتزايد رويدا رويدا حتى يثقل وفي الموطأ قال مالك وكذلك " أي كالمريض غير المخوف والمريض المخوف " الحامل في أول حملها بشر وسرور وليس بمرض ولا خوف لأن □ تبارك وتعالى قال في كتابه (فيشرناها بإسحاق وقال حملت حملا خفيفا فمرت به فلما أثقلت دعوا □ ربهما لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين) .

وحقيقة المرور : الاجتياز ويستعار للتغافل وعدم الاكتراث للشيء كقوله تعالى (فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضره) أي : نسي دعاءنا وأعرض عن شكرنا لأن المار بالشيء لا يقف عنده ولا يسأله وقوله (وإذا مروا باللغو مروا كراما) . وقال تعالى (وكأين من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون) . فمعنى (فمرت به) لم تتفطن له ولم تفكر في شأنه وكل هذا حكاية للواقع وهو إدماج . والأثقال ثقل الحمل وكلفته يقال أثقلت الحامل فهي مثقل وأثقل المريض فهو مثقل والهمزة للضرورة مثل أورق الشجر فهو كما يقال أقربت الحامل فهي مقرب إذا قرب أبان وضعها . وقد سلك في وصف تكوين النسل مسلك الإطناب : لما فيه من التذكير بتلك الأطوار الدالة على دقيق حكمة □ وقدرته وبلطفه بالإنسان .

وظاهر قوله (دعوا □ ربهما) أن كل أبوين يدعوان بذلك فان حمل على ظاهره قلنا لا يخلو أبواب مشركان من أن يتمنيا أن يكون لهما من الحمل مولود صالح سواء نطقا بذلك أم أضرراه في نفوسهما فإن مدة الحمل طويلة لا تخلو أن يحدث هذا التمني في خلالها وإنما يكون التمني منهم على □ فإن المشركين يعترفون □ بالربوبية وبأنه هو خالق المخلوقات ومكونها ولا حظ للآلهة إلا في التصرفات في أحوال المخلوقات كما دلت عليه محاجات القرآن لهم نحو قوله تعالى (قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده) وقد تقدم القول في هذا عند قوله تعالى (ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) في الأنعام . وإن حمل (دعوا) على غير ظاهره فتأويله أنه مخصوص ببعض الأزواج الذين يخطر ببالهم الدعاء .

وإجراء صفة (ربهما) المؤذنة بالرفق والإيجاد للإشارة إلى استحصار الأبوين هذا الوصف عند دعائهما □ أي يذكر انه باللفظ أو ما يفيد مفاده ولعل العرب كانوا إذا دعوا بصلاح

الحمل قالوا : ربنا آتانا صالحا .

وجملة (لئن آتيتنا صالحا) مبينة لجملة (دعوا ا) .

و (صالحا) وصف جرى على موصوف محذوف وظاهر التذكير أن المحذوف تقديره : (ذكرا) وكان العرب يرغبون في ولادة الذكور وقال تعالى (ويجعلون البنات سبحانه ولهم ما يشتهون) أي الذكور .

فالدعاء بأن يؤتيا ذكرا وأن يكون صالحا أي نافعا : لأنهم لا يعرفون الصلاح الحق وينذران : لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين .

ومعنى (فلما آتاها صالحا) لما أتى من آتاه منهم ولدا صالحا وضمير (جعل) للنفس الواحدة وزوجها أي جعل الأبيوان المشركان .

و (الشرك) مصدر شركه في كذا أي جعل ا شركة والشركة تقتضي شريكا أي جعل ا شريكا فيما آتاها ا والخبر مراد منه مع الإخبار التعجيب من سفه آرائهم إذ لا يجعل رشيد الرأي شريكا لأحد في ملكه وصنعه بدون حق فلذلك عرف المشرك فيه بالموصلية فليل (فيما آتاها) دون الإضرار بأن يقال : جعل له شركا فيه : لما تؤذن به الصلة من فساد ذلك الجعل وظلم جاعله وعدم استحقاق المجعل شريكا لما جعل له وكفران نعمة ذلك الجاعل إذ شكر لمن لم يعطه وكفر من أعطاه وإخلاف الوعد المؤكد .

وجعل الموصول (ما) دون (من) باعتبار أنه عطية أو لأن حالة الطفولة أشبه بغير العاقل .